في العودة الى ١٤ تموز

سهيل سامي نادر

> اذن ، اعادت الحكومة تاريخ ١٤ تموز بوصفه يوماً وطنياً للعراق ، لعل هذا يدعو الى الاحتفال ، فقد أسيء الى هذا التاريخ ومحي من ذاكرة الاجيال الشابة. اصارحكم القول لو دعيت إلى احتفال تكريم لهذه الذكرى لما حضرت. لقد كرهت دائماً المناسبات الوطنية التي هي عديدة جداً ، كما كرهت الاناشيد والخطب الرنانة للسياسيين ، ان هذا اليوم بالنسبة لي يدعوني الى تأمل حزين للدورة الفارغة والمعتوهة وغير المجدية التي دارها التاريخ العراقي.

اذا كان علينا ان نسترجع وطنيتنا من جديد فعلينا في البدء ان نطلق اكثر ما عندنا من مرارة وكبت ونقد. في الايام التي كنت اكتب فيها نقداً فنياً في الصحف، كنت دائماً اؤجل الكتابة الى حين تبتعد المناسبة التي حركتني مسافة كافية. ضع نفسك في حفل عراقي وستعرف كيف تكيف نفسك لسلوك وسطي سخيف او سلوك متوائم تترجم فيه دون وعي منك احاديث الاعجاب المتطايرة، او النقد الذي يقال مع شراب البيبسي كولا.

من هنا ليس سراً ان السلطات العراقية في كل الازمنة كانت تحترم المناسبات وتقيم لها وزنا استثنائياً، فمن خلال التحشيد والاناشيد والاغاني والخطب تظهر ابنية متعملقة تجعل كلاً منا صغيراً.

لا تمتلك السلطات العراقية الحالية مثل هذه الامكانية، بل لعل المجتمعات المحلية هي التي استولت على العادات القديمة. لقد اختل مفهوم الضبط. لكن محاولات الضبط ماشية على بركة التجانس الاجتماعي المحلي الذي تريد بعض القوى ان تفكك موازينه المدنية لمصلحة سلطة الاعيان والطوائف ورؤساء العشائر.

في العودة الى ١٤ تموز وعده - مجدداً- عيداً وطنياً، اكاد لا اعرف الا القليل من الاشخاص ممن انتبه الى هذه العودة. العطلة تفعل هذا اكثر من الموحيات الخاصة بهذه المناسبة. ودعوني اقول ان هذه العودة قد لا تثبت شيئاً، فهي ليست عودة الى روح تموز، والى برنامجها الذي نعرف انه لم يتحقق. مثل هذه القضايا تعبر بسبب ضغط الحاضر. لقد تغيرت القضايا المطروحة، لكن - ها انا أفاجئ نفسي: ما زال الماضي يخترق الحاضر، ومازال الحاضر لا يضغط الا من جهة تحطيم ما تبقى من عراقية العراقيين، ومن وطن العراقيين، ومن وطنيتهم.

اعترف انني اشعر بان الرجوع الى ١٤ تموز بوصفه عيداً وطنياً جاء من انعدام حيلة، فالعراقيون منقسمون الى حد ان تواريخهم انقسامية تتعارك على الساحة علناً. نعم.. ثمة اعياد وطنية في العراق كثيرة، وهي مسيسة الى حد انها تشكل مروحة رمزية، فاختيار هذا العيد دون ذاك يعد خيانة لبعض القوى. ان عدم الاتفاق يجعل الصور الرمزية، واشعاعات المروحة تلك، تحل محل الحياة، وتلغم اللغة العادية بالشراسة والمماحكة والعنف.

ثمة مشكلة- لعلها مشكلتي انا- وهي كيف نجعل ١٤ تموز عيداً وطنياً (ليس بقرار) ولكن بعمل سياسي يرجع بالوحدة الوطنية الى لحظة التاريخ الوطني التي تطابقت فيها ارادة العراقيين قبل ان يستولي عليهم جنون السياسة الانشقاقية؟

قد يبدو هذا الطرح مثالياً، فما من عودة، لكن فكرة العمل السياسي تستحق التقدير، والا فلا يوم وطني واحد للعراقيين المنقسمين، بل توجد تواريخ منسوبة الى وطنية وجهات النظر والأيديولوجيات والعقائد والطوائف التي اسست نفسها على القمع والتنكيل، ثم انها وطنية الظروف التي وجد العراقيون أنفسهم فيها بلا حول ولا قوة، وقد اندمجوا بدلالاتها وواقعيتها القهرية، وتعلموا خيانتها بالباطن، ثم كرروها في تاريخهم السياسي الحديث.

لقد صنع العراقيون ثورة ١٤ تموز، ثم خانوها، كل على طريقته، ثم رقصوا بأعياد الدكتاتوريات، وكعوا من رموزها وطرقها الغريبة، ولم يعرفوا غيرها. والان.. علينا ان نذكرهم جميعاً ان تاريخ ٩ نيسان الذي اقترحه البعض في لحظة احتفالية يوماً وطنياً، هو ثمرة لأخطائهم وخفتهم وجنون قادتهم السياسيين.

لقد منع عن العراقيين بلوغ سن الرشد، ثم منعوا انفسهم عن بلوغه. وهذا سر عنتهم وقسوتهم وسجالياتهم التي لا تصل الى شيء. هذا ما يسمى: العزة بالإثم!

في العام الماضي استطلعنا آراء بعض الشباب بشان ما يعرفونه عن ثورة ١٤ تموز وقادتها، وكانت النتيجة مريعة، فقد حلت اسماء محل اخرى - والحياة تعمل بالأسماء عندنا- وعلمنا منها ان عبد الكريم قاسم اعدم ١٩٦٨ وعبد السلام عارف اعدم عام ١٩٧٠، وبصرف النظر عن هذه الاخطاء، فقد حدس الشباب، او لعلهم عرفوا من اهاليهم، ان هذه السنوات تميزت بتآمر واعدامات قادة تموز. لكنهم كانوا يعرفون زمنهم المعاش جيداً، فهو زمن تآمري، يموت المرء فيه من همسة ومن نكتة ومن الحزن الداخلي.

الآن.. هل يمكن ان ندعي ان بامكاننا الكتابة على ما جرى محوه؟

يا لكثرة الندوب اذن، ويا لكثرة التواريخ الخاطئة، والاحداث التي تأتي في غير ميعادها، او التي لا نتوقعها ونحن غارقون في مشكلات العيش.

اسأل: اذا كان العراقيون اليوم يعيشون عدم اتفاق مؤسساتي من النوع المرتبط بإنتاج الحياة اليومية وإعادة إنتاجها، فكيف سيتفقون بشأن قضايا الفكر والإيديولوجية والرموز؟

إذا كان العمل السياسي يتداعى أو يتجسد في نهاية المطاف في تخندقات الطوائف والمحاصصات، فكيف يمكن المحافظة على استقلالية الدولة عن النظام السياسي؟ ان الدستور يضمن هذا، لكنه لا يضمن مواطنين يحترمونه، ولا يضمن حصولنا على ثقافة جديدة، ولا يضمن منع التأويل الايديولوجي للقوى الرابحة أو الخاسرة في ظروف الخصومات والإرهاب.

وانا اكتب الآن لست متأكداً من سيفهمني حقاً من العراقيين، لا أعرف من اخاطب على وجه التحديد، فعراقيو ١٩٥٨ الذين عرفتهم في شبابي ليسوا هم عراقيو عام ٢٠٠٥, دعونا . لطفاً . من مزاعم عراق الحضارة والتاريخ. ثمة هوة في الخبرة والمزاج والأحاسيس والأهداف والمهمات والوعي والتعاريف والمعرفة والافكار والاحداث تفصل ما بينهم. أنا لا أرغب. بالتأكيد . ان يكونوا متماثلين، بل ان تكون هناك جسور للعبور ما بينهم، الحد الأدنى، اللغة المشتركة. قد يقال لي ببداهة الموضوعيين الوطنيين المخادعة: لكن هذا ما يفعله الزمن!

آه . حقاً.. نسيت. هل الأمر متعلق بالأجيال؟ إنني أعرف هذا بالتأكيد، أفهم (هذا) الذي تغير ولا إمكانية لرده إلى استذكاري معذب يريد ان يعيشه مجدداً. نحن نكبر، نتعلم، ونزداد خبرة، ونترك ميراثاً وراءنا.

لو أن الامر حدث على هذا النحو لكانت التواريخ أمامنا مع شيء من متعة الاكتشاف وفرح التجديد والأسى العادي الناتج عن بعض الخسائر.

يتسلم جيل من جيل سابق معارف وتجارب يحاول ان يجمعها ويفهمها ويصنفها وينتقي منها، يدعمها أو يتخطاها أو يغادرها من دون أسف.

لكن ما حدث ليس هذا. ما من أجيال جديدة تسلمت راية أو معرفة أو ميراث، فمن أفق إلى آخر لا تظهر غير حركة دائرية مغلقة هي أسوأ بكثير من الدائرة الخلدونية التي تأتي فيها عشيرة باسلة همجية وتحل محل عشيرة كانت باسلة وهمجية إلا انها استسلمت لدعة العمران. لكن دائرتنا هي تكرار ما حدث، اعادة انتاج سلوكي (لعل هذا ما يميز الوطنية العراقية). دائرة تسرق الحياة من الجميع، وتديرهم معها، من دون دليل، وتطلق مأثرة السرقة وتعممها. وهناك موت يعالج بإيقاظ الموتى. وهناك قيامات متكررة لا يولد منها غير الاشباح والمسوخ والدائخين والمصدومين.

انا اعرف القوى التي اسقطت ١٤ تموز وتآمرت عليه، لكن اللحظة الحالية لا تجعل معرفتي هذه جزءاً من دليل سياسي، فالحاضر، والاسطفافات السياسية الجديدة، والتطلعات الجديدة، تضغط باتجاهين: ان يكون الجميع أبرياء من الماضي، أو ان يكون الجميع قد تآمروا على وطنهم.

في غياب نقد سياسي اجتماعي يستند إلى المعرفة وليس على الأقاويل والشائعات، فإن تاريخ الحركة الوطنية العراقية كله سيظل مروحة رمزية تنتج خصومات جديدة بدلالة الخصومات القديمة. على المرء ان يصفي ماضيه وينشر حساباته أمام نفسه علناً. المكبوت يجب ان يطفو والعقل الراشد يجب ان يكون دليلنا لسياسة جديدة في بناء دولة عراقية ليست مملوكة لأحد ولا مركوبة من احد.

الحـــــرب الإلكترونيـــــة في العـــــراق

جمال العميدي

بعد يوم واحد من "خميس لندن الأسود" اختصرت صحيفة "فاينانشيال تايمز" العلاقة بين قمة الثماني، التي اختتمت مؤخرا في غلين إيغلز باسكتلاندا، والتفجيرات التي عصفت بالعاصمة البريطانية، وذلك عبر رسم كاريكاتيري يظهر قادة الدول الصناعية وهم يمدون يدهم برزمة من النقود إلى أطفال إفريقيين يمدون بدورهم أيديهم لتلقيها. لكن انفجارا يقع بين الجانبين، يعيق وصول رزمة النقود إلى الأطفال الفقراء. كاتب في الصحيفة نفسها علّق بالقول إن الجماعات الإرهابية لن تتسنّى هزيمتها إلا من خلال فصلها عن العناصر التي تساندها وتزودها بالمزيد من الأعضاء الجدد، موضحا أن ما بحثه قادة الدول الثماني الكبار يتعلّق بتقديم المساعدات للدول الأكثر فقرا، على أساس أن القاعدة والتنظيمات الشبيهة بها هي انعكاس لمراحل طويلة من الظلم الحقيقي حول العالم، على حد قول الكاتب.الإرهاب فرض نفسه، إذن، على القمة، وغلب على معظم مناقشاتها، ولاسيما أن القمة قُوطعت بتفجيرات ٧ تموز، وألقت بظلالها على قمة مجموعة الثماني. وفي اليوم نفسه أوردت الـ "تايمز" مقالا بعنوان "رزمة واقعية: قمة الثماني لن ترضي المنتقدين ولكنها تشكّل تقدما". المقال قال إن قمة الثماني انتهت بشكل هادئ، بعد أن غلبت إعلانات الاتحاد ضد الإرهاب على جدول الأعمال الأساسي، فضلا عن التغير المناخي والفقر في أفريقيا.

وقبل انتهاء القمة قال وزير الخارجية البريطاني جاك سترو إن الذين يقفون وراء تفجيرات لندن لن يمكنهم تقويض فرص زعماء دول الثماني في التوصل إلى اتفاق على القرارات التي ستصدر عن قمتهم. وأكد ستروِ أن الهجمات أدّت إلى خلق جبهة موحدة في المؤتمر، مضيفا أنها أسهمت "في التشديد على أن الخلافات التي تحدث أحيانا، خلال المناقشات بين القادة المجتمعين والدول، هي خلافات هامشية ومحدودة تماما، مقارنة بما يوحّد ويجمع قادة دول العالم المجتمعين في غلين إيغلز". وقال الرئيس الفرنسي جاك شيراك مساء الخميس "لقد لاحظنا تغيّرا في الموقف الأمريكي"، موضّحا أن "الاتفاق الذي نسعى للتوصل إليه هو اتفاق مهم للغاية حتى لو لم يحقّق كل ما كنا نتطلّع إليه". وتوقّع مراقبون، تعليقا على هذه التصريحات، أن يسفر الاتفاق عن حل وسط، يجعل كلا من الولايات المتحدة وأوروبا يشعران بالنصر.

هذا التطور المهم في مشروع الحرب على الإرهاب، الذي يشير إلى تقارب وجهات النظر الأوربية مع أمريكا، سبقه تطور نوعي حدث في تشرين الأول ٢٠٠٤، تمثّل في إصدار مجلس الأمن قراره المرقم ١٥٦٦، القرار المذكور الذي اعتمد بالإجماع، دعا الدول الأعضاء إلى تعزيز الإجراءات الدولية لمكافحة الإرهاب، ولا سيما تلك التي تشهد أعمالا إرهابية، سواء اكانت ممن يتعرض رعاياها للإرهاب في الداخل أو الخارج، أم ممن يقوم رعاياها بالتخطيط لأعمال إرهابية وتنفيذها. وقد شارك في تقديم مشروع القرار ١٥٦٦ كل من الصين وفرنسا وألمانيا ورومانيا، فضلا عن روسيا التي قدمت الفكرة وأصرّت عليها، ولاسيما بعد الهجوم الذي تعرضت له بلدة "بيسان" الجنوبية. وفي اليوم نفسه أصدر القادة الأوربيون والآسيويون الذين حضروا القمة الأوربية . الآسيوية الخامسة في العاصمة الفيتنامية هانوي، بيانا في اختتام اجتماعاتهم، أكدوا فيه التزامهم بمكافحة الإرهاب، وضرورة أن يجري ذلك بالتوافق مع مبادئ الأمم المتحدة. أما الدور الأمريكي فكان رئيسيا، لأن الولايات المتحدة نجحت، أخيرا، في تدويل الإرهاب وعولمته، بعد أن طالبت بذلك حتى قبل الحادي عشر من أيلول.

وإذا كنا نتكلم هنا عما درجت تسميته بـ "تجفيف منابع الإرهاب"، فإن قرار مجلس الأمن، وبيان قمة هانوي أشارا بوضوح إلى استعداد تلك الدول للمشاركة الفاعلة في الحرب على الإرهاب، إذا ما صدر قرار من مجلس الأمن يقرّ ذلك. لكن الحديث عن الحرب على الإرهاب ومكافحته، لم يعد يشمل اليوم شن عمليات عسكرية فحسب، إذ ركز قادة الثماني الكبار بالأمس القريب على مشكلة الفقر ودورها في دفع المجتمعات الفقيرة إلى ردود الأفعال العنيفة. وقبل ذلك سمعنا بالحرب الاقتصادية والحرب الإلكترونية التي تستعمل شتى إمكانات تكنولوجيا المعلومات المعاصرة.

الصدمة والرعب في ظل الحرب مركزية الشبكات

في فقرة لافتة من كتابه "الوضع ما بعد الحداثي"، ذهب جان فرانسوا ليوتار إلى أن الحرب العالمية الأولى كانت تدور حول السيطرة على أكبر مساحة من "الأراضي"، في حين أن الحرب العالمية الثانية انشغلت بالسيطرة على "الثروات". أما حروب اليوم فهي حروب "معلومات"، يلخصها سؤال جوهري واحد هو: من يعلم أكثر؟

وإذا عدنا إلى الحربين الأخيرتين اللتين شنتهما أمريكا في أفغانستان والعراق سنجد أن هاتين الحملتين كانتا مدهشتين عسكريا بكل المقاييس، إذ انتصرت الولايات المتحدة بشكل حاسم وسريع، وبأقل قدر من الخسائر البشرية، مما يدفعنا إلى القول إن الأداء العسكري الأميركي كان رائعا في تطبيق الخطة الموضوعة، وتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقه. لكن الولايات المتحدة، من جهة أخرى، كانت الطرف الأقل نجاحا في الفوز بتحقيق السلام بعد الانتصار في الحرب، ولا سيما في العراق. وترجع بعض أسباب ذلك، كما يشير باحثون كثيرون، إلى أن أميركا شنت هاتين الحربين باستعمال أحدث نظريات الحرب الالكترونية والمعلوماتية حتى الآن، في حين أنها كانت تعالج القضايا الأخرى التي تكفل السلام بأكثر الطرق كلاسيكية وغطرسة وعشوائية.

ولعل الثورة التي تحدّث عنها العسكريون في عالم الحروب تعود إلى "الحرب مركزية الشبكات Network Central War" التي كُلّف بالإشراف عليها والتخطيط لها الأدميرال المتقاعد آرثر سيبروسكي، الذي أنشأ "مكتب تحوّل القوة" في تشرين الأول ٢٠٠١، بعد استدعائه من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وتكليفه بمهمة تطوير وتفعيل التفوق المعلوماتي، عبر التوفيق بين كل جهود التحوّل في الخدمات، ولا سيما أن الحروب التي يمكن أن تخوضها أميركا تتسم بكونها عمليات تتم ضد مجموعات محدودة من الأهداف في البر والبحر، وفي بيئة عمليات تتميز بالهشاشة.

وفي دراسته: الحرب وتبِعاتها، المنشورة في عدد تموز ٢٠٠٣ من دورية "بوليسي ريفيو"، قال فريدريك كيغان إن مفهوم "الحرب مركزية الشبكات NCW" صعب ومعقد، إذ يقوم على أن التفوق المعلوماتي يولّد قوة قتالية متزايدة، باستعمال أجهزة استشعار الشبكة التي تربط بين صانعي القرار وحاملي الأسلحة أومستخدميها، مما يخلق إدراكا مشتركا للخطر، وسرعة كبيرة للقيادة في اتخاذ القرار، فضلا عن توفير درجة أعلى لنشاط العمليات، ودرجة تدمير أعظم، وفاعلية متزايدة للبقاء، ودرجة من الانسجام الذاتي مع الظروف المتغيرة. وهذا يعني أن كل الوحدات العاملة في القوات المسلحة يجب أن ترتبط معا إلكترونيا، بدءا من الأقمار الصناعية إلى الجنود. هذا كله ينبغي أن يرتبط بالقادة والأسلحة بصورة كاملة وبطريقة شبكية، من أجل تزويدهم بصورة عملياتية مشتركة، ورؤية موحدة تتعلق بما يجري في كل مكان من أرض المعركة، والمنطقة التي يتم تنفيذ العمليات فيها. أما من حيث مضمون هذا المفهوم، فهو يعني أن ستراتيجيا "الحرب مركزية الشبكات" تترجم إلى قوة قتالية عن طريق إحداث ربط فعال بين كل الوحدات الموجودة في ساحة المعركة.

وتسعى ستراتيجيا NCW إلى استخدام الاستخبارات المتكاملة التي يفترض أن توفرها الأقمار الصناعية والطائرات المقاتلة والطائرات المسيّرة وأجهزة الاستشعار الأخرى، مما يسمح للقادة بأن يتعرفوا على الأهداف الصحيحة وتدميرها بذخائر حربية موجهة بدقة. وتسمح هذه الستراتيجيا، المرحلة من مفهوم تجاري في الأصل عرفته بعض الشركات الأميركية التي تعتمد الشبكات المعلوماتية المعقدة، بوضع توقعات دقيقة تتسم بأقل قدر من المخاطرة، وبالتكيف السريع في مواجهة الظروف المتغيرة. والأساس في ستراتيجيا NCW هو تحقيق التفوق المعلوماتي على العدو، عبر معرفة كل شيء عنه وتركه جاهلا بأي شيء عن الطرف الذي يواجهه، مما يضمن سرعة إجهاض الخيارات المعادية، ويخلق خيارات جديدة، ويحسن فعالية الخيارات المنتقاة، ممهدا لانتهاء العمليات بسرعة أكثر وبكلفة أقل. ذلك كله يسمح للخبراء الستراتيجيين والعسكريين بالحديث عن أن هذا المفهوم سيكون ثوريا وتحوليا، إذ سيؤدي خلق هذه الشبكة المتكاملة، والتطبيق الفعلي للكثير من المفاهيم الأخرى ذات الصلة بها، إلى تزويدنا للمرة الأولى بإمكانية الانتقال إلى ما وراء الستراتيجيا القائمة على "الاستنزاف"، إلى أخرى قائمة على "الصدمة والرعب"، ذلك الشعار الذي رُفع إبان الحرب على نظام صدام.

هكذا إذن تم كسب الحرب، فلماذا كانت خسارة السلام إذن؟

حكاية الشبح: الجهاد الإلكتروني وهجوم الشبكة المعاكس

في ١٩ أيلول ٢٠٠٤ ظهر بيان على شبكة الانترنيت يقول إن التقارير التي يبثها "المجاهدون" في العراق تعبر عن وجهة النظر التي تريد لها أميركا أن تضيع وسط التعتيم الإعلامي الذي تفرضه، في إطار سعيها لخداع مواطنيها وحلفائها. كان هذا البيان، وبيانات أخرى كثيرة، يعود لخبير معلوماتي يعمل مع تنظيم "التوحيد والجهاد" الذي يتزعمه الزرقاوي، والذي جعل من العراق مركزا لنشاطه المسلح. صحيفة "الشرق الأوسط" قالت في عددها الصادر يوم ٣ أيلول ٢٠٠٤، إن هذا الخبير الذي يدعى (أبو ميسرة العراقي) كالشبح، لأنه بارع في التخفي وموجود في كل مكان تقريبا، مع أن أحدا لا يعرف أين يوجد بالضبط في عالمنا الافتراضي، وما إذا كانت بياناته وإشرطته الصوتية والصورية تُبَث من العراق أم من خارجه، وما ذلك إلا لأن (أبو ميسرة) يغير حساباته الخاصة بالانترنيت، مستفيدا من التكنولوجيا الجديدة لإيصال رسالته إلى العالم.

إيفان كولمان مستشار شؤون الإرهاب قال إن لا مجال لوقف نشر هذه التقارير والبيانات، وأن بوسع أي خبير إرسال تسجيلات فيديوية ذات نوعية متميزة إلى ملايين الناس من دون أن تتعرض إلى حذف أو تعديل. ومع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة الأميركية وجدت إدارة بوش نفسها في حرب دعائية تحاول فيها أن تعكس صورة تؤكد إحراز تقدم في العراق، واستقرار الأوضاع الأمنية فيه. إلا أن بيانات (أبو ميسرة) أظهرت صورة معاكسة، من هنا سعت السلطات الأميركية إلى إسكاته بأية وسيلة.

هكذا إذن أصبحت تكنولوجيا الانترنيت التي ظهرت في ستينيات القرن الماضي، بوصفها شبكة اتصالات تساعد على درء أي هجوم سوفييتي نووي محتمل، وسيلة مهمة اليوم في يد العناصر الأصولية المتشددة. وفي أعقاب أحداث ١١ أيلول عثر ضباط الأجهزة الأمنية الفيدرالية على الكثير من الآثار التي أثبتت أن خاطفي الطائرات التي استُخدمت في الهجمات استعملوا البريد الإلكتروني في تنسيق تحركاتهم، وحجز تذاكر الطيران، كما استخدموا الشبكة في البحث عن موضوعات تهمهم، من نحو رشّ المبيدات في الجو.

وإذا كانت الحرب مركزية الشبكات قد حققت الصدمة والرعب عبر التفوق المعلوماتي، فإن التكنولوجيا سلاح ذو حدين، ولا سيما في مجال الحرب النفسية. هكذا نجد اختصاصي الإعلام في جامعة نيويورك بيتر برادازي يقول إن شبكة الانترنيت سمحت للإرهابيين بشن حرب نفسية غير مسبوقة، لأنهم يسيطرون مباشرة على عملية صياغة صورتهم وصورة عدوهم بالشكل الذي يرغبون، وذلك عبر مخابئ يصعب كشفها. ففي ظل وجود ما يزيد على مليار جهاز كومبيوتر متصلة ببعضها، يعد الانترنيت المكان الأنسب للتخفي، بالنسبة للتنظيمات السرية. فهذه التقنية تسمح للمستخدمين بإخفاء هوياتهم وتغييرها، وإلغاء حسابات البريد الإلكتروني وفتح أخرى بديلة. كما يمكن إخفاء موقع المستخدم من خلال التنقل من جهاز كومبيوتر إلى آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات. وما يساعد على السرية أيضا أن عناوين وحسابات البريد الالكتروني المجانية لا تطلب من المستخدم سوى معلومات محدودة، وهي معلومات نادرا ما يجري التثبت من صحتها.

وبالعودة إلى (أبو ميسرة) نجد أن المحققين في مجال الإرهاب بدؤوا بالتعرف على اسمه في شهر كانون الثاني ٢٠٠٤، وذلك في غرف الدردشة التابعة لمنتدى "الأنصار". ويعتقد هؤلاء المحققون أن موقع "الأنصار" هو الذي نقل في شهر أيار ٢٠٠٤، وللمرة الأولى، شريط الفيديو الذي صور قتل رجل الأعمال الأميركي نيكولاس بيرغ. وأضاف المحققون أن مقر الموقع كان في اليكساندريا، إلا أنه نقل إلى ماليزيا مع مقتل بيرغ. وحالما تمكنت السلطات الأميركية من إغلاقه بشكل مؤقت، عاد إلى الظهور ثانية في جهاز خادم في ويست لافايت بولاية انديانا.

الغرور الإمبراطوري: ستراتيجيات قاتلة

بتاريخ ٢٦ أيلول ٢٠٠٤ نقلت وكالة الصحافة الفرنسية تصريحا للقائد الميداني في محافظة وزيرستان الجنوبية الباكستانية الجنرال نياز خاتاك قال فيه إن مقاتلي القاعدة محنّكون ومدربون تدريبا عاليا، ويحملون معهم خرائط عسكرية متطورة، وبوصلات ومناظير، وأجهزة اتصال فعالة من نوع "ثريا"، و"جي بي أس"، تعمل على وفق نظام عالمي لتحديد المواقع. فضلا عن ذلك ذكرت صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" في ٢٦ أيلول ٢٠٠٤ أن بعض خبراء التنظيمات الإرهابية أجروا تحقيقا في ٤ قارات ليكتشفوا أن "القاعدة" كانت حتى ١١ أيلول منظمة رخوة الروابط ومرنة العلاقات، على الرغم من أن كبار قادتها ظلوا يمارسون نفوذا حاسما في تحديد عملياتها. وبعد أن فقدت قاعدتها في أفغانستان، نشرت المنظمة أذرعها ورواياتها في كل العالم، وظهرت من جديد بوصفها أكثر التنظيمات الأيديولوجية فتكا ولا مركزية.

من هنا صار أسامة بن لادن مصدر إلهام للكثير من الناشطين، أكثر منه قائدا ميدانيا أو تنفيذيا، ولا سيما في العراق. وعوض التدريبات المطوّلة والمتخصصة التي كانت توفرها أفغانستان، أصبح المقاتلون يتلقون تدريبهم الآيديولوجي في منازلهم عبر شتى أشكال التكنولوجيا، ويزَج بهم إلى ميادين القتال مباشرة. وتميل هذه التنظيمات، التي تلتقي مع القاعدة آيديولوجيا، إلى العزوف عن العمليات العسكرية الكبيرة التي يستغرق الإعداد لها سنوات عدة، مفضلة اللجوء إلى تكتيكات جديدة تقوم على العمليات الصغيرة المتزامنة وذات الكلفة المحدودة. من هنا انتقلت "القاعدة" بسرعة من محض منظمة إلى آيديولوجيا، وهي تميل اليوم، منذ تفجيرات ١١ أيلول، إلى العمل اللامركزي الذي يتفق في الستراتيجيات فحسب، وذلك خلافا لما كان قبل ١١ أيلول، حين حرص قادة التنظيم على السيطرة الكاملة على كل العمليات والناشطين، والإشراف على العمل خطوة خطوة.

وقبيل استقالته أشار كبير ضباط مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية مايكل شوير، في كتابه: الغرور الإمبراطوري، إلى أن أهم الستراتيجيات القاتلة التي اتبعتها الوكالة هي الانشغال بمطاردة أذيال "القاعدة"، عبر اعتقال المشتبه بهم، ومتابعة الخيوط التي تؤدي إليهم، وذلك على حساب مواجهة الانتشار السريع لخلايا التنظيم في شتى أرجاء العالم. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن القاعدة توزعت إلى وحدات مستقلة، وأن الخبراء لا يعرفون حجم التحكم المركزي الذي يمارس على تلك الوحدات، يصبح البحث عن قادة التنظيم عملا غبيا لا طائل من ورائه، لأن هذا التنظيم صار مثل التنين، كلما قطع له رأس نبت آخر.

من الواضح إذن إن الخلل لم يكن في تطبيق ستراتيجيا NCW، بل كان الخطأ كامنا في الاعتقاد بأن ما يصلح لساحة المعركة، يصلح لما بعدها. لقد ثبت بالدليل القاطع أن التكنولوجيا التي عوّلت عليها أميركا في حربها على الإرهاب سلاح ذو حدين، وأن الحرب المركزية يمكن أن تحسم أهداف المعركة، لكنها لا تستطيع أبدا أن تقف بوجه لا مركزية التنظيمات الإرهابية.

وقد أثبتت تفجيرات لندن الأخيرة صحة هذا الرأي، الأمر الذي يدفع العالم اليوم إلى مقاربة حلول مختلفة للسيطرة على هذه الظاهرة، بما في ذلك الاعتراف بالأخطاء المتعلقة بالسياسات القائمة على الغرور الإمبراطوري الذي كان من أهم سماته مساندة الأنظمة الدكتاتورية وسيادة الظلم والكيل بمكيالين، ولا سيما في الشرق الأوسط.